تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

مع الأستاذ توفيق الحكيم فى « أوديب الملك » :

فى العدد (٨٣٥) من الرسالة ، سألنى أديب عراق فاضل هو الأستاذ فؤاد الونداوى عن بعض الآراء التى عقب بها الأستاذ توفيق الحكيم على مقدمة الترجمة الفرنسية لمسرحية « أوديب الملك » ... ولقد عرض الأستاذ الونداوى لتلك الآراء بالنقد والتحليل ، مخالفاً صاحبها فيما ذهب إليه من تفسير لبعض القيم النفسية والفنية ، طالباً إلى أن أعقب على الرأيين : رأى الكاتب ورأى الناقد .

يقول الأستاذ الونداوى إن الأستاذ الحكيم قد حاول أن يوفق بين فكرة الأسطورة وبين روح الإسلام ، فجعل من رغبة أوديب فى العلم بالحقيقة وبحثه المتصل عنها سبباً يدفع أوديب إلى الكارثة ، أى أنه جعل الموجب للكارثة طبيعة أوديب ذاتها ؛ طبيعته المحبة للبحث فى أصول الأشياء المعمنة فى الجرى خلف الحقيقة . ثم يعقب الأديب العراقى الفاضل على ذلك بقوله : ولست أدرى كيف استساغ كاتب فنان كتوفيق الحكيم أن يجعل من حب أوديب للحقيقة وسعيه وراءها إثماً يستحق عليه ذلك العقاب النكر الفظيع ؛ فإن حب الحقيقة والسعى وراءها — مطلقة كانت أو نسبية ، عامة كانت أو جزئية — لدى أناس كالفلاسفة والعلماء هو الذى بث شهرتهم فى الآفاق وخلد ذكرهم فى أعماق الأفئدة ، وألهج به الألسنة على مدى الأجيال والعصور !

أود أن أقول للأستاذ الونداوى رداً على اعتراضه : هل أقمت اعتراضك يا صديقى على أساس من خطأ الفكرة النفسية ، أم على أساس من التعثر فى خطوات العمل الفنى ؟ فى رأيى أن الأستاذ الحكيم قد بعد عن منطقة الاعتراض فى كلتا الناحيتين ؛ لأننا لو وضعنا الفكرة النفسية تحت المجهر لبدت لنا متفقة مع منطق الحياة ومنطق الفن ... لاحظاً أبداً إذا ما جعل توفيق الحكيم من جرى أوديب وراء الحقيقة سبباً يدعو إلى الكارثة ؛ لأن طبيعة أوديب النفسية — طبيعة الشك والتحدى والغرور والكبرياء — من شأنها أن تدفع به إلى هذا المصير المحزن الذى انتهى إليه ! إننا لو بحثنا عن نقط الارتكاز الفنية فى المسرحيات الثلاث وأعنى بها مسرحية سوفوكل ومسرحية أندريه جيد ومسرحية توفيق الحكيم ، لوجدناها تتفق جميعاً على أن الطبيعة النفسية عند أوديب كانت هى مصدر الكارثة ؛ الكارثة التى أدت بأوديب إلى أن يقتل أباه لايوس ويتزوج من أمه جوكاست ويفقأ فى النهاية عينيه ليحرم إلى الأبد من نعمة الضياء ... أوديب عند سوفوكل يبحث عن الحقيقة ، وعند أندريه جيد يبحث عن الحقيقة ، وهو يبحث عنها أيضاً عند توفيق الحكيم ؛ فالأساس النفسى موجود عند الكاتب الإغريقى وموجود عند الكاتب الفرنسى وموجود عند الكاتب المصرى . وإذا كان الصراع الخارجى بين إرادة الآلهة وحرية الإنسان هو الهدف الأصيل لخطوات العمل الفنى عند سوفوكل وأندريه جيد ، فإن خطوات العمل الفنى عند توفيق الحكيم قد أحالته صراعاً داخلياً بين إرادة الإنسان وبين سطوة الحقيقة ... هناك صراع مشبوب تثيره فى نفس أوديب نزعة التحدى للقوى الخفية ولو كان فيها ألف مورد من موارد التهلكة ، وهنا صراع مشبوب أيضاً ولكن الدافع إليه نزعة أخرى هى نزعة الشك الملح فى التخلص من الواقع ، ولو كان فيه ألف سبيل من سبل النجاة من الكارثة . وكلا الصراعين يتقرر معه المصير على ضوء الطبيعة النفسية التى عالجها الأستاذ الحكيم علاجاً حاول فيه أن يوفق بين فكرة الأسطورة وبين روح الإسلام !

هذا يا صديقى عن منطق الفن ، أما عن منطق الحياة فلا أرى أن توفيق الحكيم قد خالف منطق الحياة أو اعترض سيرها الطبيعى ... إن الحياة تقدم لنا فى كثير من الأحيان نماذج نفسية من طراز أوديب يدفعها حب الاستطلاع والبحث عن الحقيقة إلى كثير من المتاعب والكوارث والآلام ! أنا معك فى أن حب الحقيقة والسعى وراءها لدى أناس كالفلاسفة والعلماء هو الذى بث شهرتهم فى الآفاق وخلد ذكرهم فى أعماق الأفئدة ، وألهج به الألسنة على مدى الأجيال والعصور . أنا معك حين أقدم إليك واحداً ممن ذكرت هو الفيلسوف الألمانى نيتشه ... ولكن

لا تنس أن هذا الفيلسوف العظيم الذي ظل يبحث عن الحقيقة حتى رفع عنها الغطاء ، هذا الفيلسوف يا صديق قد فقد عقله في سبيل الجري وراء الحقيقة !

أختلف معك في هذه النقطة وأتفق معك في نقطة أخرى ، هي اعتراضك على الأستاذ الحكيم حين يقول : إن رغبة أوديب في العلم بالحقيقة هي التي جرته إلى ما جره العلم الحديث على الإنسان الحديث ممثلا في (فرويد) عند ما طفق يحفر في أعماق الإنسان إلى أن وجد أنه عاشق في الباطن لأمه ! ... الواقع أنك لم تعد الحق حين أفصحت عن حيرتك أمام هذا التعليل ، وحين قلت إنك لم تفهم كيف ارتضى الأستاذ الحكيم أن يشبه حالة أوديب أمام المأساة بحالة فرويد أمام حقائق النفس ! إلى هنا يا صديق وأقف إلى جانبك لأنه لا وجه للمقارنة على الإطلاق ... أما بعد ذلك فلا أرضى عن تفسيرك للمشكلة عند ما تقول : إن البحث عن الحقيقة قد أدى عند فرويد إلى اكتشاف الحقيقة فحسب ، ولكنه عند أوديب قد أدى إلى وقوع الكارثة أو المأساة وواضح أن الفرق بين الحالين أكبر وأوسع من أن يستساغ أي تشبيه بينهما !

أريد أن أسأل : هل كشف فرويد حقاً عن الحقيقة التي رددها من بعده الكثيرون في الشرق والغرب ، وأعني بها عشق الطفل في الباطن لأمه ؟ هذا العشق الناتج عن مص ثديها في حالة الرضاع مما يترتب عليه لون من ألوان اللذة الجنسية ، حتى لتتحول تلك اللذة عند تقدم السن إلى عادة التدخين عند كثير من الناس ؛ لأن فيها بقية من المتعة الجنسية في الصغر ممثلة في عملية المص بالشفتين ، والفم كما يقول فرويد منطقة من المناطق الشديدة الحساسية والشعور باللذة ؟! ... ليصدقني الكثيرون إن هذا التفسير النفسي الذي جاء به فرويد تفسير يحفل بالشذوذ وانحراف التفكير ؛ لأنك لو أرضعت الطفل من ثدي أنثى من إناث الحيوان لقام بها نفس عيامه بأمه ، ولتعلق بها نفس التعلق ولأقبل عليها نفس الإقبال ؛ لأن عقله الصغير إلى أبعد حدود الصغر لا يهيئ له أن يفرق بين مرضعة ومرضعة ولا بين حيوانة وإنسانة ! إن المسألة مسألة شعور بالجوع والاندفاع إلى كل منبع من منابع التغذية يمكن أن يرد عن الطفل الجائع غائلة الجوع ، فكيف تقبل هذا الشذوذ الفكري الذي ينادي به فرويد حين يلصق بالطفولة البريئة نزعة الانحرافات الجنسية ؟ ! ... ثم هل تتحول حقاً تلك اللذة الجنسية المتخلفة عن أيام الطفولة إلى لذة التدخين عند كثير من الناس ؟ ترى كيف يستقيم هذا التفسير العجيب إذا ما قدر لفرويد أن يعيش في تلك الأيام التي لم يكن فيها تدخين ولا مدخنون ؟! . إننا في انتظار الجواب من الواغلين بهذا اللون الطريف من الدراسات النفسية !

بقي أن أرد على النقطة الأخيرة التي أثارها الأستاذ الونداوي حول رأي آخر من آراء الأستاذ الحكيم حين يقول : إن الطعن الذي أنزله أوديب بعينيه قد ذهب في تفسيره أندريه جيد في مسرحيته إلى كونه إمعاناً في الكبرياء . يؤكد الأستاذ الونداوي أن الواقع يشهد وصحائف الكتاب بدورها تشهد بأن أندريه جيد لم يقل مثل هذا الكلام ولم يفكر فيه ، لأنه قال بصراحة عن لسان أوديب مخاطباً الكاهن تيرسياس بأنه — أي أوديب — إنما يفقأ عينيه لأنهما لم تحسنا تنبيهه إلى الكارثة قبل وقوعها ولم تضيئا له الطريق ! معذرة يا صديق إذا أكدت لك أن الواقع يشهد وصحائف الكتاب بدورها تشهد بأن أندريه جيد قد قال مثل هذا الكلام وفكر فيه ... أما عن الواقع فهو ممثل في تلك الزاوية التي سلط منها أندريه جيد أضواءه على شخصية أوديب الإنسانية ؛ وهي الشخصية المثالية التحدية الكبيرة المغرورة الثائرة على الآلهة في كل فصل من فصول مسرحيته . إن طعن أوديب لعينيه لم يكن في الواقع إلا تحدياً للألم وإمعاناً في الكبرياء ! مهلا يا صديق ولا تعترض ... إن صحائف الكتاب تشهد بصدق ما أقول ، هناك قبل نهاية الفصل الأخير بصفحتين حيث يقول أندريه جيد عن لسان تيرسياس مخاطباً أوديب بعد أن فقأ عينيه : « إذن فهي الكبرياء التي دفعتك إلى أن تفقأ عينيك . لم يكن الإله ينتظر منك هذا الإثم الجديد ثمناً لجريمتك الأولى ، وإنما كان ينتظر منك الندم ليس غير » !

بعد هذا أرجو أن يتقبل الأستاذ الونداوي خالص الشكر على حسن ظنه ، وعاطر التحية على صدق إخائه .

حول مستقبل الشعر وانحراف المواهب :

هذا العنوان يجمع بين عنوانين ، أحدهما لمقال كتبه الأستاذ يوسف البعيني في العدد (٨٣٥) من الرسالة ، والآخر لمقال كتبته أنا في العدد (٧٩٧) من الرسالة ... ولقد لاحظت أن الأستاذ البعيني قد جال بفكره في نفس الأفق الذي جلت فيه

من قبل ، وأن هنالك كثيراً من التقارب بين وجهات النظر وطرائق التعبير ومرامي الألفاظ . إنه لون من توارد الخواطر غير شك ؛ لأن طبيعة الموضوع الذي تناولته بالدراسة كما تناوله الأستاذ البيتي حول ماضي الفن وحاضره ، من شأنها مع النظرة المتفلسفة في أعماق المشكلة أن يخرج منها الباحث بمثل ما خرج به الأستاذ وخرجت ، من تحليل يؤدي إلى تعليل ومن مقدمة تدفع إلى نتيجة .

يبدأ الأستاذ البيتي مقاله عن « مستقبل الشعر » بهذه الكلمات : « أجمع فريق من الحكماء والمصلحين وفي طليعتهم الموسيقي البولوني الشهور أنتون بادريفسكي على أن الفنون الجميلة تسير بخطى واسعة نحو الفناء . ومما قاله ذلك العبقري الموهوب أن تلك الأنغام العميقة التي كانت ترفع الروح إلى الملأ الأعلى توارت أمام الموسيقى الأمريكية الحديثة . لقد صدق هذا الفنان في تعليله ؛ فإن رجل الفن كان في الماضي البعيد يغذي عبقريته بجمال الطبيعة . أما الآن فهو لا يعنى بإغناء موهبته وتهذيبها إذ طغت موجة المادة وتبدلت أغراض الحياة فاختلفت عما كانت عليه في سابق الأجيال » .

هذا هو مفتاح المشكلة الذي يعالج به الأستاذ البيتي فتح النوافذ المؤدية إلى نتائج موضوعة ، وهو نفس المفتاح الذي قدمته من قبل حيث قلت : « ... هذه الحضارة التي نعيش فيها حضارة قوامها المادة تبدأ منها وتنتهي إليها ، وتدفع الناس إلى أن يتلمسوا الوسائل لكسب العيش عن طريق غير طريق الأدب والفن في كثير من الأحيان ؛ لأنه طريق غير مرجو الفائدة ولا مأمول المواقب في ميدان النضال مع الحياة ومن هنا يتجهون باستعدادهم وملكاتهم اتجاهاً يبتعون من ورائه الكسب المادي والمكان المرموق والفن في رأي الماديين لا يحقق لهم شيئاً من هذا ، وماذا تجدي الشهرة في رأيهم مع الفاقة أو يعود عليهم من المجد وفي ركابه الحرمان ! ...

إن صوت هربرت ريد في كتابه (الفن والمجتمع) ليضيع وسط ضجيج المادية الأهوج حين يقول : « يجب أن ننظر إلى الفن نظرتنا إلى كل شيء لا يستغنى عنه ، مثله كمثل الخبز والماء وعلى أنه جزء من حياتنا اليومية لا يتجزأ . وينبغي ألا يعامل الفن كضيف عابر ، ضيف يدفع أجر ضيافته ، ولكن كواحد من أفراد الأسرة سواء بسواء » ! ...

إن الحضارة الحديثة وتعقد مشكلاتها قد استبدت بالمواهب والعقول فوجهتها تيماً لهذه المشكلات ، وما فيها من تعقد لم يدع لها من لحظات الفراغ ما يمكنها من استلهام الوحي في الفنون الرفيعة ، وما أبعد الفرق بين الفنون في ماضيها الغابر وحاضرها المشهود ! لقد كان الناس في الماضي البعيد يعيشون للفن ويطربون له ويشجعون المواهب على أن تمضي في طريقها فلا انحراف ولا اعوجاج وإنما اتصال مطلق بالطبيعة واستلهام لمظاهرها وروائعها ، فلما تعقدت الحياة وطغت المادة على كل شيء طغيانها القوي الجارف ، انحرفت المواهب عن ميادينها الأصيلة وانحرفت معها الأذواق !

« من وراء الأبد » وجرأة القصاصين العوام :

قيل إن الذبابة هبطت يوماً على رأس الفيل ، فلما يئست من أن تشعره بوجودها قالت له : يا عزيزي ، إني طائرة عنك ... ونظر إليها الفيل ضاحكاً ثم قال : يا عزيزتي ، والله ما أحسست بك هابطة حتى أحس بك طائرة !!

تذكرت هذه القصة الطريفة وأنا أستمع لمن نقل إلى خبراً — لحواه أن قصاصاً من القصاصين العوام ، اجترأ على أن يتهمني في إحدى الصحف اليومية بالسطو على أحد الأفكار من قصصه المزدان بها قصتي « من وراء الأبد » ... أما هذا القصاص الساذج النابغ الذي أراد أن يشعرني بوجوده كما فعلت الذبابة الخالدة ، فهو السيد أمين يوسف غراب !

أود أن أقول لهذا القصاص الذي لا أشك لحظة في أنه درس فن القصة في كتاب القرية ؛ أود أن أقول له إنه لو قدر له أن يعاصر المثال الفرنسي العظيم رودان لألهمه الإبداع في صنع تمثال يمثل النساء النادر ... ذلك لأنه لو خطر لي أن أنقل فكرة — عن أحد القصاصين ، فإن الذوق يفرض علي أن ألجأ إلى أعلام القصة في أدب الغرب . عندي مثلا في الأدب الفرنسي بلزاك وديماس وفلوبير وزولا وموباسان ، وعندي مثلا في الأدب الروسي تولستوي ودستويفسكي وتورجنيف وتشيكوف وجوركي ، وعندي مثلا في الأدبين الإنجليزي والأمريكي ديكنز ولويس ولورنس وبوموم .. فمن يصدق أنني أترك تلك القمم حيث يحلق النسور ، لأهبط إلى السفوح حيث يحلق الغراب ؟ !

أنور المعداوي